العذول في شعر ابن الفارض

الوسيلة إبراهيم محمد *

ملخص:

تناولت هذه الدراسة " العذول في شعر ابن الفارض " مدخلا ، ومقدمة شملت تعريف التصوف وترجمة لسلطان العاشقين ابن الفارض ، ومميزات شعره الغزلي ، ومن ثم موضوع العذول في شعره فذكرت تقدمة عن العذول في الشعر العربي القديم ، وبعد الدراسة للعذول في شعر ابن الفارض تبين اتصافه بعدة صفات كان أكثرها الجهل وعدم دخوله التجربة الصوفية ، ونتاج هذا الجهل وعدم دخول التجربة نجد أنّ ابن الفارض كثيرا ما يصرح بعدم جدوى عذل العذول بل ويذكر إحسانه إليه من حيث لا يدري ، كذلك وصف ابن الفارض العذول بالضلال والسفه والعمى ، وفي بعض الأحيان يدعو عليه بعدم النجاح أو بفقد الأحبَّة أو بالموت وفي موضع آخر يدعو العاشق على نفسه بعدم الراحة من العذول إن هو قصر تجاه المحبوب .

Abstract

This study deals with censurer in Ibn Elfarid poetry it includes an introduction that contains definition of Sufism , the profile of Ibn Elfarid and the characteristics of his love poetry ;dealing with censure as topics in his poetry . The researcher mentions an introductory about the censure in the anciemt Arabic poetry there it appear from the study of Ibn Elfarids poetry that Ibn Elfarid is characterized with several features of which ignorance is the greatest and he hasn't gained any previous experience about Sufism, As result of this , we see that Ibn Elfarid usually declared that it is not right to make the censurer in isolation . More over he claims that we should be kind to wards him and without his knowledge. Ibn Elfarid described the censurer as errant, insolent and foolish sometimes he damns the censurer and wished him failure or lose his brother , or wished him to die on the other hand

* أستاذ مساعد – كلية الآداب – جامعة شندي

the lover damned himself to be uncomfortable from the censurer if he didn't fulfils the demands of his darling .

مدخل :

للصوفية أدب وشعر زاخر بالمعاني الوجدانية لعل الحب الإلهي أكثرها وروداً لاسيما أن الصوفي في مجاهداته يسعى كي يرقى أعلى درجات المحبة بدءً من الميل ثم الوله ثم الصبابة ثم الشغف ثم الهوى ثم الغرام ثم الحب ثم الود ثم العشق قال عبدالكريم الجيلي عن العشق : " ... وفي هذا المقام قد يرى العاشق معشوقه فلا يعرفه ولا يصبو إليه كما روي عن مجنون ليلى أنها مرت به ذات يوم فدعته إليها لتحدثه فقال دعيني فإني مشغول بليلى عنك " (١)

لقد عبر الصوفية عن حياتهم الخاصة وتجربتهم الصوفية رمزاً فكان الحب الإلهي يأخذ صور الغزل العذري العفيف الذي كان عند بني عذرة بل قد يتفوقون عليهم رقة وعذوبة ، وقد صرحوا بتلك المعاني شعرا ؛ قال النابلسي :

وليلى ولُبنى في البريَّة قصدُهم وما قصدُهم ليلى ولا قصدهم لبنى

ولو لم يكونوا عارفينَ بها ولوْ لها جَحَدوا ظُلما ولو تبِعوا الظنَّا(٢)

وقال الشيخ عبدالمحمود نورالدائم :

تغزَّل أربابُ الطريقِ بعلوةٍ وليلى ولُبنى والربابِ وبثنةِ

إشاراتُ تلويحٍ إلى المقصِد الذي تقهقرَ عنه العقلُ من بعدِ حَيرةِ (٣)

إنّ الصوفية بتجربتهم الذوقية ومنذ أمد بعيد وجدوا اعتراضا كبيراً أسموه (العذل) وصل إلى حد تكفيرهم، بل إلى حد الإفتاء بالقتل كما حدث للحلاج وصلبه عام ٣٠٩ هـ ؛ لذا رأى الصوفية وجوبَ كتمِ تجربتهم عن غيرهم خوفا من العذَّال أو عليهم كما سيتضح في هذه الدراسة ؛ قال ابن نُباتة المصري :

أكتِّم أخبارَ الهَوى عن عواذلي وللطَّرف مِنِّي بالمدامع أنباءُ

فيا عجباً منِّي لإنسانِ مُقلتي يُحدِّث أَخباري وفي فمِه ماءُ (٤)

يحكى أن محبين كانا في مرتبة واحدة وهي مرتبة العشق وكان الأول عاشقا للنبي صلى الله عليه وسلم والثاني كان عاشقا لامرأة وكان هذا الأخير يحب البقاء في الخلاء وذات يوم وجد مقبرة من رخام فكتب عليها:

أيا معشرَ العُشَّاق باللهِ خبِّروا إذا اشتدَّ عشقٌ بالفتَى كيف يصنعُ

فجاء الأول مارا بالمقبرة فقرأ ما كتب عليها ثم كتب :

يداري هواهُ ثم يكتم سرَّه مخافةَ عذَّال عليه يشنِّعوا

فجاء الثاني فقرأ ثم كتب :

وكيفَ يُداري والهوَى قاتلُ الفتَى وفي كلِّ يومٍ قلبُه يَتقطَّعُ

فجاء الأول فكتب :

ومن لم يُطقْ صبراً لكتمانِ سرِّه فليسَ له عِندي سِوى الموتِ أنفعُ

فجاء الثاني فقرأ ثم كتب :

سمِعنا أطَعنا ثم مِتنا فبلّغوا سلامي إلى من كانَ للوصلِ يَمنعُ (٥)

إنّ موضوع العذول في شعر الصوفية من الموضوعات التي كثر تكرارها عند الشعراء بل عند الشاعر الواحد وسأتناول ابن الفارض في محاولة لبلورة رؤيته للعذول ، ولم يكن اختياري لابن الفارض إلا لأنه عُرِف بسلطان العاشقين ولأنَّ ذكر العذول كثر في شعره، وهذا ما يدل على صدق التجربة وثرائها.

مقدمة تشمل حد التصوف وترجمة ابن الفارض .

أولا: حد التصوف :

إنّ الوصول إلى الحد الحقيقي لأيّ علم أو فن أمر صعب للغاية ، وإذا تعلَّق الأمر بالتصوف ؛ فإنّ الباحث يجد كثيرا من التعريفات التي تجعل حدّه وتعريفه أصعب ؛ إذ إنّه يتعلق بتجربة روحية من أبرز خصائصها استعصاؤها على لغة البشر ، يقول الغنوجي عن التصوف : " هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم ... وأمّا التعبير عن هذه الدرجات والمقامات كما هو حقّه فغير ممكن لأنَّ العبارات إنّما وُضعت للمعاني التي وصل إليها فهم أهل اللغات، وأمّا

المعاني التي لا يصل إليها إلّا غائب عن ذاته فضلا عن قُوى بدنه فليس بممكن أن تُوضع لها الألفاظ فضلا عن أنْ يعبَّر عنها بالألفاظ " (٦)

ولهذا فليس غريبا أن نجد عددا غير قليل ممن عرَّف التصوف كلٌّ يُعرِّفه حسب تجربته وتذوُّقه ومقامه وحاله، يقول الشيخ زروق فيما أورده رفيق العجم : " قد حُدّ التصوف ورُسم وفُسِر بوجوهٍ تبلغ نحو الألفي باب، وترجع كلُّها إلى صدق التوجه إلى الله وإنّما هي وجوه فيه" ثم قال: "الاختلاف في الحقيقة الواحدة إنْ كثر دلَّ على بُعدِ إدراكِ جُملتها ثم هو إنْ رجعَ لأصلٍ واحد يتضمَّن جملةَ ما قيلَ فيها . كانت العبارة عنه بحسب ما فُهمَ منهُ ، وجملةُ الأقوال واقفةٌ على تفاصيله واعتبار كلِّ واحدٍ على حسب مثالِه علماً أو عملاً أو حالاً أو ذوقاً وغير ذلك ، والاختلاف في التصوف من ذلك " (٧)

ويورد الطوسي حديثا مطوَّلا في حدِّ التصوف أرى أنّه أكثر دقة وتحديدا وقَبولا يقول: " الصوفية لم ينفردوا بنوعٍ من العلم دون نوع ، ولم يترسَّموا برسمٍ من الأحوال والمقامات دون رسم ... فهم مع الله في الانتقال من حال إلى حال ، فلمّا كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم، فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالا دون حال ولا أضفتهم إلى علم دون علم ؛ لأني لو أضفتُ إليهم في كل وقت حالاً لكان يلزم أن أسمِّيهم في وقت باسم آخر، وكنت أضفتُ إليهم في وقت حالاً دون حال على حسب ما يكون الأغلب عليهم، فلمّا لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللَّبسة لأنَّ لُبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ... ألا ترى أنّ الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليهم السلام فنسبهم إلى ظاهر اللّبسة فقال عز وجل : " إذ قال الحواريُّون " وكانوا قوما يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأحوال التي كانوا بها مترسمين ، فكذلك الصوفية عندي . والله أعلم . نسبوا إلى ظاهر اللباس " (٨) والحور في اللغة : " البياض ؛ قال الشاعر:

عَيْناءُ حَورَاءُ منَ العِينِ الحِير.

والحَوْراءُ: البيضاء، لا يقصد بذلك حَوَر عينها.

والأَعْرابُ تسمي نساء الأَمصار حَوَارِيَّاتٍ لبياضهن وتباعدهن عن قَشَفِ الأَعراب بنظافتهن ؛ قال:

فقلتُ: إِنَّ الحَوارِيَّاتِ مَعْطَبَةٌ، إِذا تَفَتَّلْنَ من تَحْتِ الجَلابِيبِ

يعني النساء" (٩) ، وهذا تعليل أقرب للصواب فمن حيث الاشتقاق فإنّ كلمة " صوفي" مأخوذ من الصوف ، ومن الثابت كما ذكر أنّ الصوف كان لبس الأنبياء والأولياء وكذلك يمكن القول إنّ الصوفية سُموا بذلك لهذا السبب فحقا لا يمكن تسميتهم باسم علم لأنهم لم يعرفوا بعلم محدد ، ولا يمكن تسميتهم بحال أو مقام لتغيُّر أحوالهم وكثرتها .

ثانيا : ترجمة ابن الفارض :

هو عمر بن الحسين بن على بن المرشد بن على شرف الدين أبوحفص الحموي الأصل ، وُلد بالقاهرة في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦هـ ، قدم أبوه من حماة . في بلاد الشام . إلى مصر فأقام فيها وكان يثبّت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام ؛ فلُقِّب بالفارض ، وهناك رُزق بولده عمر لذلك سمي بابن الفارض (١٠) ، وقد توفي سنة ٦٣٢ هـ ودفن في سفح جبل المقطَّم في مكان يُعرف اليوم بقرافة ابن الفارض (١١)

وعن منزلته في عصره يقول حفيده ابن ابنته : كان إذا مشى في المدينة تزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، وكان إذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة وسكينة ووقار. (١٢)

إنّ المتأمل القارئ لشعر ابن الفارض . في الحب خاصة . يجد جملة من المميزات التي تميّز بها منها :

١-ظهور العشق في شعره بكثرة ولذا فليس غريباً أن يُعرف بسلطان العاشقين فهو القائل :

وكلٌّ فتى يهوى فإنّي إِمامُه وإنّي بريءٌ من فتىً سامعِ العذلِ (١٣)

والقائل :

٢–تتعدَّد أسماء المحبوبة في شعره ، من ذلك قوله :

إذا أنعمتْ نُعمٌ علىّ بنظرةٍ فلا أسعدت سُعدى ولا أَجملتْ جُمل (١٤)

٣– تتعدد ألفاظ الحب وتختلف أسماؤه من ذلك " هو الحب فاسلم " و" تمسَّكْ بأذيالِ الهوَى " ، و "تعرَّضَ قومٌ للغرام " ، و " ما الصدُّ إلا الوُدُّ" ، و " أهل الصبابة" ، و" لقلت لعشَّاق "... وكل هذه وغيرها في قصيدة واحدة مطلعها :

هوالحبُّ فاسلمْ بالحشا ما الهوى سهلُ فما اختارَه مُضنىً بهِ ولهُ عَقلُ (١٥)

٤ – يُكثر من أوصاف الضعف والضنَى والنُّحول ، وكثيراً ما يستخدم أسلوب المبالغة ؛ مثل قوله :

خفيتُ ضنىً حتَّى لقد ضلَّ عائدي وكيفَ ترَى العُوّاد من لا له ظِلُّ

وما عثرت عينٌ على أثري ولمْ تدعْ ليَ رسماً في الهوَى الأَعينُ النُّجلُ (١٦)

٥– يستخدم أسلوب التكرار فمن ذلك قوله :

يا أهلَ ودّي أنتمُ أمَلي ومنْ ناداكمُ يا أهلَ ودّيَ قد كُفِي

وحياتِكم وحياتُكم قسماً وفي عمري بغيرِ حياتِكم لم أحْلِف (١٧)

وقد يراد بالتكرار التلذذ بذكر المذكور إذ إنّ المحبَّ المتيَّم الصوفي لَيجد في ذكر محبوبه . ولو من العذَّال . حلاوةً ، قال النابلسي :

كلَّما أرشفَ سمْعي عاذلي مُرَّ لَومي زدتُ في الحبِّ صدَى

فكانَّ العذلَ منهِ طلبٌ لِهُيامي بلِسانٍ عقدَ (١٨)

وقال ابن الفارض :

وأصبو إلى العذّال حبّا لذكرها وكلِّيَ إنْ حدّثتُهم أَلسنٌ تَتلو (١٩)

العذول في شعر ابن الفارض :

لقد كان للعذول حضور واضح في الشعر العربي القديم تمثله المرأة التي غالبا ما تكون هي زوج الشاعر ، وهي إمَّا أن تلومه على الكرم وإنفاق المال ، أو تلومه على

الإغراق في الحزن والحب ، فمن نماذج العذل على الكرم والإسراف قال رجل من آل حرب :

قالت أراكَ بما أنفقتَ ذا سرَفَ فيما فعلتَ فهلّا فيك تصريدَ (٠ ٢)

ومن نماذج العذل على الإغراق في الحزن قال جميل بثينة :

يقولونَ منْ أبلاكَ والمالُ عامرٌ عليكَ وضاحي العيشِ منكَ كنينُ

فقلتُ لهمْ لا تَعذلونيَ وانظُروا إلى النازعِ المقصورِ كيفَ يكونُ (٢١)

يقول إنّ سعي في الحنين إلى وطني ومن أحب مثل النازع أي البعير المقصور إي المقيد فكيف لا أبلى ولا أتغير وأحزن ؟؟

ومن نماذج الإغراق في الحب وهو من أكثرها شيوعا قول أحدهم :

فإن تمنعوا ليلى وحسنَ حديثِها فلنْ تمنَعوا منِّي الهوَى والقوافيا

فهلّا منعتُم إذ منعتُم حديثَها خيالا يُوافيني مع الليلِ هاديا (٢٢)

وقال جرير بن عطية :

تقول العاذلات علاك شيب أهذا الشيب يمنعني مراحي (٢٣)

تعذله العاذلات فيقول لهن : لا ، لن يمنعني الشيب من الغزل واللهو.

كذلك كان للصوفية ذكر للعذل والعذول وقد يضاهي ما ورد في الشعر القديم من حيث الكم ، وقد يفوقه من حيث التجربة الشعورية والصورة الفنية .

أكثر ابن الفارض من ذكر العذول وأبدى رأيه فيه بوضوح في شعره ، وسأعرض لذلك فيما سيأتي :

أولا – عدم دخول العذول التجربة الصوفية:

في محاولات كثيرة يسعى الصوفية لإثبات ما يذهبون إليه في الفكر والمعتقد وذلك عن طريق إقناع الأطراف الأخرى بدخول تجربتهم ؛ إذ إنّ الهوى له أحوال خاصة تجعل المحب . إن أفصح عن أسراره . ذا لغة خاصة وعبارات يصعب على

من لم يخض تلك التجربة استيعابها وقبولها وكان ذلك الجهل بتجارب الصوفية هو ما أدَّى إلى الصراع والخصومة بينهم وبين غيرهم ، قال أبو مدين الغوث :

فقلْ للذي يَنهى عنِ الوجدِ أهلَه إذا لمْ تذُقْ معنى شرابِ الهوَى دَعْنا

إذا لم تذُقْ ما ذاقتِ الناسُ في الهوَى فباللهِ يا خالي الحَشا لا تُعنّفنا

وسلِّمْ لنا فيما ادَّعينا فإنّنا إذا غَلبتْ أشواقُنا ربما صِحنا

وتهتزُّ عند الاستماعِ حواسُّنا وإنْ لم نُطِق حَملَ التَّواجُد نَوّحْنا أما تنظرُ الطَّيرَ المُقفّصَ يا فتَى إذا ذَكَرَ الأَوطانَ حنَّ إلى المَغْنى؟ (٢٤)

وأرى أنّ خير من يمثل تلك المعاني ابن الفارض سلطان العاشقين إذ يقول :

قل للعذولِ أطلتَ لَوميَ طامعاً أَنّ المَلامَ عنِ الهَوَى مُستوقِفي

دعْ عنكَ تَعنيفي وَذُقْ طعمَ الهوَى فإذا عشقتَ فبعدَ ذلكَ عَنّفِ (٢٥)

إنّ إطالة العذول في اللوم طمعا في أن يترك المحب والعاشق هواه . في نظر ابن الفارض . يعطله عن الهوى ؛ ولذا فهو يطلب منه ترك التعنيف وأن يذوق طعم الهوى ،وله بعد ذلك أن يُعنِّف ما شاء ، وتبدو الثقة واضحة عند ابن الفارض فهو على يقين أنّ من يذق ما ذاقه يحدث له ما يحدث لكلِّ مُحبٍّ ومن ثم فلن يلوم . الذائقُ . أهلَ الهوى على هواهم .

ويقول في موضع آخر :

يا أخا العذلِ فيمنَ الحسنُ مثلي هامَ وجداً بهِ عدمتُ أخاكا

لو رأيتَ الذي سبانيَ فيه من جمالٍ ولن تراه ، سباكا (٢٦)

يخاطب العذول : إنّ مثلي هام وجدا بالحسن ثم يدعو عليه بفقد أخيه ويقول لو رأيت ذلك الحسن والجمال الذي سباني لأصبحتَ مثلي لكنك لن تراه لأنّك لم تدخل تجربتي ولم تذق ما ذقته حتى ترى ما رأيته.

ويقول أيضا :

يا لائما لامني في حبِّهم سفها كفّ الملام فلو أحببت لم تلمِ (٢٧)

يطلب من العذول اللائم أن يترك الملام لسبب واضح . في نظر ابن الفارض . هو أنّ العذول لم يحبَّ إذ إنّه لو أحب ودخل تلك التجربة لِمَا لام .

ثانيا – جهل العذول :

المراد عند الصوفية بوصف العذول بالجهل ليس جهل العلوم والمعارف فهي إنّما تأتى بالاكتساب والتعلم إنّما المراد جهل حقيقة التصوف الذي هو نتاج للهوى ، دليل ذلك قول ابن الفارض :

ولي في الهوى علمٌ تَجلُّ صفاته ومن لم يُفقِّهه الهوى فهو في جهل (٢٨)

يتأثر ابن الفارض من جهل العذول الذي لم يعرف حقيقة الهوى ؛ فنراه يقول :

يا لائمي في حبِّ مَن مِن أجلِه قد جدَّ بي وجدي وعزَّ عزائي هلّا نهاك نُهاك عن لوم امرئٍ لم يُلفَ غرَ مُنعّمٍ بشقاء لو تدري فيم عذلتني لعذَّرتني خفّضْ عليك وخلني وبلائي (٢٩)

يحثُّه ويَحضُّه على ترك لوم امرئ منعَّم بالهوى الذي هو شقاء ، ويقول: لو كنت تعلم في أي شي تعذلني لوجدت لي العذر أي أنت جاهل بي وبحالي ؛ لذا هوّن على نفسك فأنا أحن لحالك فاتركني وحالي ، وواضح خوف ابن الفارض على العذول الجاهل بالأحوال.

يقول أيضا :

لحاني عذولي ليس يعرف ما الهوى وأين الشجي المستهام من الخلي(٣٠)

يقول لامني عذولي لأنه لم يعرف ما الهوى وشتَّان ما بين الحزين مريض الحب والخالي من المحبة ، قال مهدي ناصرالدين في شرحه الصوفي : " العذول هو اللائم الذي لم يسلك طريق الحق تعالى وكذلك الخلي أي الذي لم تدخل المحبة الإلهية قلبه "(٣١)

ثالثا – عدم جدوى العذل :

من الثابت أنّ الإيمان بالشئ يجعل صاحبه لا يتزعزع وكأنّ بالإيمان سرا خفيا يُثبِّت صاحبه ؛ قال الهذلي في رثاء أبنائه :

وتجلدي للشامتين أريهم أنّي لريب الدهر لا أتضعضع (٣٢)

فالشاعر إيمانه بقضاء الله . لفقده أبنائه . جعله لا يتزعزع حتى لأقوال الشامتين ، كذلك حكت لنا السيرة عن ثبات صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال بلال بن رباح وعمار بن ياسر وغيرهما ، وكل ذلك بفضل الإيمان .

يقول ابن الفارض وكأنّه يقصد الحلاج الذي صلب عام ٣٠٩ هـ: ومن لم يكن في عزّة الحب تائها بحبِّ الذي يهوى فبشِّرْهُ بالذُلِّ إذا جادَ أقوامٌ بمالٍ رأيتَهم يجودون بالأرواحِ منهم بلا بُخلِ

وإن هُدِّدوا بالهجرِ ماتوا مخافةً وإن أُوعِدوا بالقتل حنُّوا إلى القتل

لعمري همُ العشاقُ عندي حقيقةً على الجِدِّ والباقون منهم على الهزل (٣٣)

ولم يكن عذل العذّال ليأتي بنفع وجدوى مع أناس تُجهل أسرارهم ، يقول ابن الفارض :

ظن العذول بأنّ العذل يوقُفني نام العذول وشوقي زائد نامِ (٣٤)

يقول هيهات أن يجدي عذل العذول وان يُصدق ظنه بأن العذل يوقفني عن الهوى ، إنّ العذول قد نام بينما شوقي في ازدياد وتعاظم تجاه المحبوب.

ويقول :

رجع اللاحي عليكم آئسا من رَشادي وكذاكَ العشقُ غَيْ

ظل يُهدي لي هُدىً في زَعمِه ضلَّ كم يَهذي ولا أُصغي لِغَي (٣٥)

يقول إنّ اللائم قد رجع يائسا من عذلي الذي يحسبه رشاداً ؛ فهو يرى أنّ العشق ضلالٌ ، وقد ظل يهدي نصحا يظنه هدى لكنني أراه ضلالا ، إنّه كثيرا ما يهذي لكنني لا أسمع ضلاله . تظهر ثقة ابن الفارض بنفسه وبمذهبه وهو يوضح مذهب العذول واعتقاده أنّ الصوفي في ضلال وأنّه يسعى كثيرا لإصلاح حاله وإرجاعه للحق وإلى سبيل الرشاد ، ويكثر عند ابن الفارض وصف الحب والهوى بالغيِّ

والضلال وكأنّه يطلب بذلك من العذول أن يتركه لحاله وضلاله ، بل أحيانا يرى أنَّ خير الأصحاب هو الذي يأمره بالغي وعن الرشد يزجره يقول :

خير الأصحاب الذي هو آمري بالغيِّ فيه وعن رَشاديَ زاجري(٣٦)

ويقول :

كنتَ الصديقَ قبيلَ نُصحكَ مُغرَما أرأيتَ صبّا يَألفُ النُّصّاحا

إن رمتَ إصلاحي فإنِّي لمْ أُرِدْ لفسادِ قلبي في الهَوَى إصلاحا

ما ذا يُريد العاذلونَ بعذلِهِ من لبس الخلاعةَ واستراحَ وراحا (٣٧)

فهذا اعتراف واضح من الشاعر بكون قلبه فاسدا في الهوى ويُصرِّح بأنه لا يريد إصلاحا ، وتبدو لهجة الضجر تجاه العذول الذي يرى وجوب إصلاح فساد العاشق ، بل إنَّ الشاعر ليعترف بالخلاعة ويطلب من العذول أن يتركه وحاله.

ويقول في موضع آخر:

ولقد أقول للائمي في حبِّه لما رآه بُعيدَ وصليَ هاجري

عنِّي إليك فلي حشاً لم يُثنِها هَجرُ الحديثِ ولا حديثُ الهاجرِ(٣٨)

يخاطب العذولُ اللائمَ . على حبِّه ووصله . ابتعد عني فدواخلي التي تغلغل فيها الحب والهوى لا يبعدها عن المحبوب شيءٌ وِّسيَّان عندي : الحديث فيه وعدمه.

رابعا : إحسان العذول من حيث لا يدري :

إنّ المحبَّ العاشق مثلما يُحِب ذكر اسم محبوبه ، يحب أيضا أن يسمع ذكر اسمِه من غيره ولو من العذال واللوام إذ إنّ في ذلك راحة له كما يرى ، نرى ذلك عند ابن الفارض بكثرة مفرطة فمن ذلك قوله يخاطب العذول :

أحسنتَ لي مِنْ حيثُ لا تَدري وإنْ كنتَ المُسئَ فأنتَ أعدلُ جائرِ

يُدني الحبيبَ وإنْ تناءتْ دارُه طيفَ الملامِ لطَرف سمعي الساهرِ

فكأنّ عذلَكَ عيسُ من أحببتُه قَدِمتْ عليّ وكانَ سمعي ناظري

أتعبتَ نفسَك واستَرحتُ بذكره حتى حسبتُك في الصبابةِ عاذري

فاعجبْ لهاجٍ مادحٍ عُذّالَه في حُبِّه بلسانِ شاكٍ شَاكر(٣٩)

يقول له لقد أحسنت لي من حيث لا تدري رغم أنك تريد الإساءة إلا أنك أعدل ظالم ؛ فقد أدنى لومُك الحبيبَ . رغم بعده . لسمعي بل كأن عذلك دابة الحبيب قدمتْ إلىّ وإنّي أنظر إليه بسمعي الذي هو كالباصرة ، لقد أتعبت نفسك وأرحتني بذكره حتى حسبتك عاذري في الهوى فضلاً عن عاذلي ، فاعجبْ منِّي وأنا أمدحك إذ قلَّما هاجٍ يمدح عذَّاله بلسان شاك الحب وبُعد الحبيب وشاكر لعذاله الذين قربوا منه الحبيب بذكرهم إياه .

ويقول قريباً من ذات المعنى :

أدِرْ ذكرَ من أهوَى ولو بملامِ فإنّ أحاديثَ الحبيبِ مُدامي

ليشهدَ سمعي من أحبَّ وإنْ نأى بطيفِ ملامٍ لا بطيفِ مَنام

فلي ذكرها يحلو على كل صيغة وإن مزجوه عذالي بخصام

كأنَّ عذولي بالوصال مُبشِّري وإن كنتُ لم أطمعْ بردِّ سلام(٤٠)

يتشوق ابن الفارض لسماع ذكر الحبيب ولو بملام إذ إنّ أحاديث الحبيب هي كخمرته ، وإن سمعه ليرى من يحب وإن بعُد بطيف ملام لا بطيف في المنام ، وإن ذكر الحبيب يحلو على كل صيغة ولو من العذال ، فكأنّ العذول بذلك مبشري بالوصال ورؤية المحبوب والسلام عليه وإن كنت لا أطمع برد السلام منه.

وقال :

وأصبو إلى العذال حبّا لذكرها وكُلِّيَ إن حدثتهم ألسنٌ تتلو (٤١)

فهو هنا يميل إلى العذال وما ذاك إلا حبا لذكر المحبوبة.

وقال أيضا :

وحيّا محيا عاذلٍ لي لم يزل يُكرِّرُ من ذِكري أحاديث ذي الخال

روى سنَّةً عندي فأرَوى منَ الصَّدى وأهْدى الهُدى فاعْجبْ وقد رام إضلالي

فأحببتُ لومَ اللؤمِ فيه لو انني مُنحتُ المُنى كانت علامة عذالي(٤٢)

يُحِي العذول الذي لم يزل يكرر ذكر أحاديث المحبوب " ذي الخال " ؛ إنّ سنتي أن أذكر اسم المحبوب وها هو العذول روى عني تلك السنة ؛ فأروى مني ظمأ وأهدى لي هُدىً ، فيا عجبي له . وقد قصد اضلالي ؛ لذا فقد أحببت لوم العذال فيه حتى أني لو منحت المنى كانت علامته عذالي .

خامسا وصف العذول بالعمى والسفه :

من المعاني التي وصف بها العشاق المحبون العذالَ اللوامَ . العمى وكأنّي بهم يشيرون بذلك إلى القلوب إذ إنها تعمى قال تعالى : " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" قال النابلسي:

أيها العذال في شغفي لومُكم من أخبثِ الكَلِم
لو شهِدتُم ما أشاهدُه من حبيبي ذقتُم أَلَمي
لكنِ الألباب زائغةٌ لا تعي والطَّرف عنه عمي (٤٣)

وقال ابن الفارض :

رجع اللاحي عليكم آئسا من رشادي وكذاك العشقُ غَي
أبعينيه عمىً عنكُم كما صَمَمٌ عنْ عذلِه في أُذُنَي (٤٤)

يقول إنَّ بعيني العذول عمى عن المحبوب كما أنَّ بإذنيّ صمم عن عذله ، وقد ذكر هذه المعاني بإسلوب الاستفهام الإنكاري ، وقريب من هذا المعني قول عائشة الباعونية في العذول :

هو أعمى وبأذني صممٌ عن أباطيلٍ جلّاها منه عي (٤٥)

كذلك وصف ابن الفارض العذول بالسفه في قوله :

يا لائماً لامني في حبِّهم سفها كفّ الملام فلو أحببت لم تلم (٤٦)

سادسا : دعاء العاشق المحب على العذول ودعائه على نفسه :

ربما ذهب الحنق بالمحب على العذول مذهبا جعل المحب العاشق يدعو على العذول ، ونرى ذلك عند ابن الفارض ظاهرا أيما ظهور قال :

يا عاذلَ المشتاقِ جهلا بالذي يلقَى مليًّا لا بلغتَ نَجاحا (٤٧)

قد يريد بقوله: لا بلغت نجاحا أي لا بلغت نجاحا فيما تذهب إليه من عذلي وإضلالي ورجوعي عن مذهب الهوى والمحبوب ، وقد يريد لا بلغت نجاحا في أي عمل أردت النجاح فيه .

وقال أيضا :

يا أخا العذلِ فيمن الحسن مثلي هام وجدا به عدمتَ أخاك (٤٨)

يريد بقوله "عدمتَ أخاك" الدعاء عليه بفقد أخيه ؛ إذ إن من شأن الأخ أن يعين أخاه في كل أموره ، وقد يكون الشاعر أراد الدعاء لنفسه . بحسبانه أخاً للعذول اللائم . بالفناء والعشق ، وقد يريد صدَّ العذول بقوله أي لا تحسبني من الأحياء .

وقد يدعو ابن الفارض على العذول ويتمنى فقده كما في قوله :

اقصرْ عدمتُك واطَّرح من أَثخَنَتْ أحشاءَه النُّجلُ العيونُ جِراحا(٤٩)

فهو هنا قد يريد بقوله " عدمتك" الدعاء عليه بالموت لحظة عذله ولومه ، ويقول في موضع آخر ما يدل على تلك المعاني :

لم أخش وأنت ساكن أحشائي إن أصبح عني كل خلٍّ نائي

فالناس اثنان : واحد أعشقه والآخر لم أحسبه في الأحياء(٥٠)

لا يهم ابن الفارض أي شي ما دام المحبوب بين جوانحه وأحشائه ، وعنده الناس قسمان : من يعشقه ولا شك أن هذا هو شاغله ، والآخر أي كل من كان غير المحبوب وقد يعني العذول . هو من الموتى إذ لم يحسبه الشاعر من الأحياء ووجه الشبه بينه وبين الميت عدم الإحساس والمشاركة للآخر العاشق . وقال أيضا مؤكدا على موت العذول :

فدعْنى ومن أهوَى فقد ماتَ حاسدي وغابَ رقيبي عند قُرب مُواصلي (٥١)

كذلك قد يدعو المحب على نفسه بعدم الراحة من العذول إن هو قصر تجاه المحبوب قال :

لا ذقت يوما راحةً من عاذلٍ إنْ كنتُ ملتُ لقيلِه ولقالِه

فو حقِّ طيبِ رضى الحبيبِ ووصلِه ما ملَّ قلبي حبَّه لمَلاله (٥٢)

نلاحظ في البيتين اعتراف الشاعر بتأثر العذول فيه ومن ثَمَّ فهو يدعو على نفسه بعدم الراحة منه إن هو بدر منه قصور وتشاغل بشيئ عن المحبوب أو ملّ قلبه حبه لصده وهجرانه .

خاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أنّ العذول اللائم للعاشق في ميدان الحب الإلهي . يتصف بعدة صفات وكان عدم دخول التجربة الصوفية والجهل بحقيقة المحبوب أكثرها ، وتبيِّن لي إيمان العاشق المحب وثقته بمذهبه وارتباطه بمحبوبه أيما ارتباط وذلك في كثير من الأبيات التي تناول فيها ابن الفارض العذول وأوضح ما يكون ذلك في التصريح بعدم جدوى عذل العذول ، كذلك في وصفه بالجهل وعدم تذوق ما ذاقه المحبون ، ووصفه بالسفه والضلال والعمى ، وأحيانا يدعو على العذول بعدم النجاح أو بفقده لأخيه أو بموته ، وفي موضع دعا العاشق المحبُّ على نفسه بعدم الراحة من العذول إن هو قصر تجاه المحبوب وفي هذا الموضع يظهر تأثير العذول فى العاشق.

المراجع

١-الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل ، عبدالكريم الجيلي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ١٣٦٨ هـ ج ١ ص٤٨.

٢-ديوان الحقائق ومجموع الرقائق ، عبدالغني النابلسي ، الناشر عبدالوكيل الدروبي ، دمشق ، ص ١٢.

٣-ديوان شرب الكأس ، الشيخ عبدالمحمود نورالدائم ، ص٣٨.

٤-ديوان ابن نباتة المصري ، الناشر محمد القلقيلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص ١٨.
٥- قبس من نور ، الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني ، مكتبة الدار الرئيسية للطريقة البرهانية ، الخرطوم، ص ٢١٨.
٦-أبجد العلوم (الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم) ، صديق حسن الغنوجي ، وضع فهارسه عبدالجبار زكار، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ج ٢ ص ١٥٢.
٧-موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ، رفيق العجم ، مكتبة لبنان ط ١ ١٩٩٩م ، ص ٧٧١.
٨-اللمع ، الطوسي أبو نصر السراج ، تحقيق د. عبدالحليم محمود طه وعبدالباقي سرور ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٠م ، ص ٤٩.
٩-لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، مادة " حور"
١٠ - ديوان ابن الفارض ، شرح وتقديم مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط١ ١٩٩٠، ص ٣.
١٠- ديوان ابن الفارض ، ص ١٥.
١١- ديوان ابن الفارض ، ص ١٣.
١٢- ديوان ابن الفارض ، ص ١٧٤.
١٣- ديوان ابن الفارض ، ص ١٦٢.
١٤- ديوان ابن الفارض ، ص ١٦٥.
١٥- ديوان ابن الفارض ، ص ١٦٢
١٦- ديوان ابن الفارض ، ص ١٦٦.
١٧- ديوان ابن الفارض ، ص١٤٤.

١٨- ديوان الحقائق ومجموع الرقائق ، سابق ، ص ٢٣.

١٩- ديوان ابن الفارض ، ص١٦٨.

٢٠- شرح حماسة أبي تمام ، الأعلم الشنتمري ، تحقيق د.علي المفضل حمودان ، دار الفكر المعاصر بيروت ، لبنان ، ص٨٤١.

٢١- شرح حماسة أبي تمام ، سابق ، ص٦٣٣.

٢٢- شرح حماسة أبي تمام ، سابق ، ص ٨٦١.

٢٣- شرح ديوان جرير ، إيلياء الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت لبنان ، ص ١٥٥.

٢٤- ديوان ابتسام المدامع ، ، ص ٤٧٢.

٢٥- ديوان ابن الفارض ، ص١٤٥.

٢٦- ديوان ابن الفارض ، ، ص ١٥٩.

٢٧- ديوان ابن الفارض ، ص١٨٧.

٢٨- ديوان ابن الفارض ، ص١٧٤.

٢٩- ديوان ابن الفارض ، ص ٢٢.

٣٠- ديوان ابن الفارض ، ص ١٨٧.

٣١- ديوان ابن الفارض ، ص١٨٧.

٣٢- ديوان أبي ذؤيب الهذلي ، ص ٥٧.

٣٣- ديوان ابن الفارض ، ص١٧٤.

٣٤- ديوان ابن الفارض ، ص ١٩٣.

٣٥- ديوان ابن الفارض ، ص ٢.٣.

٣٦- ديوان ابن الفارض ، ص ١٢٦.

٣٧- ديوان ابن الفارض ، ص ١.٦.

٣٨- ديوان ابن الفارض ، ص ١٢٦.

٣٩- ديوان ابن الفارض ، ص ١٢٦.

٤٠- ديوان ابن الفارض ، ص ١٨٨.

٤١- ديوان ابن الفارض ، ص ١٦٨.

٤٢- ديوان ابن الفارض ، ص١٧٤

٤٣- ديوان الحقائق ومجموع الرقائق ، سابق ، ص ١٢٧.

٤٤- ديوان ابن الفارض ، ص ٢.٣

٤٥- ديوان ابتسام المدامع ، طبع الطريق البرهانية ، ص ١٨٧.

٤٦- ديوان ابن الفارض ، ص١٨٧.

٤٧- ديوان ابن الفارض ، ص١٩٣.

٤٨- ديوان ابن الفارض ، ص١٥٩.

٤٩- ديوان ابن الفارض ، ص١.٦.

٥٠- ديوان ابن الفارض ، ص٢٥.

٥١- ديوان ابن الفارض ، ص ١٧٨.

٥٢ – ديوان ابن الفارض ، ص ١٦١.